(طائر النَّوْرس)

كانت دائما ما ترغمني أمي أن أضع يدي على أذني، عندما يعلو صوت أبي غاضبا، فتبدأ هي بالصراخ والبكاء، كنت أُطيعها، ولكنه كان يتسرَّب من بين أصابعي الموضوعة على أذني كلمات لا أفهم معظمها.

صوت أبي: أنا لا أعرف عن ماذا تتحدثين!

صوت أمي: لا.. أنت تعرف.. كل يوم أشم رائحة الخيانة في ملابسك.. أتساءل ما هي الخيانة؟ وهل للخيانة رائحة، يعلو صوت أبي، فاضغط على أذني، فأسمع صوت البحر ينادي، فأغلق عيني لأرى طيور النَّوْرس، وهي تطير وسط قطع السحاب الأبيض.

كانت أمي تمسح على شعري، فينتشر شذى عطرها يغمرني وهي تحكى لي عن السندباد، ورحلاته الأسطورية، كم تخيلت نفسي أبحر في سفينتي، أفتش عن اللؤلؤ، وعن جزائر المرجان، وجبال الفضة، وأرض الذهب، وأطارد الأحلام، وأدخل كهوف الحكايا، أفتّش عن أميرتي، وحكايتي الشخصية.، أمي كانت تحكي لي، فأرى أشجار الجهنمية الحمراء والبيضاء تتضفر كجديلةٍ على ظهر أميرةٍ أندلسية، كنت صغيرا، وجسدي هزيلٌ كقشة لكن صوتها الساحر نفخ في روح فارس، يمتطي جوادا مجنّحا، يسابق قوس قُزَح، لمعرفة سرِّ الألوان، كانت لا تمل من الحكي، وكنت لا أمل من الحياة، كان هذا هو عالمي السحري، أعيش مع حوريات البحر، أجمع الأصداف، وأطارد الأسماك الملونة، وأنقش اسمي على بقايا حطام السفن الغارقة،

طفلا كنت، وما زلت، أبحث عن الخيال، وعن صوت أمي، كانوا يقولون لي في مدرستي: إن الصوت طاقة، فهل تتحول الطاقة إلى حياة كما أراها، الكلمات تتجسد أمامي في حقيقتها الكاملة، شكلًا ورسمًا وحياة، أراها على الجدران، وفي خيوط النور، وحتى في الظلام، أراهم وأسمع حديثهم، أصبحوا أصدقاء لي، يأنسون بي، و أفرح بهم، كنت أذهب إلى المدرسة، وأعود مسرعًا لرؤيتهم، واللعب معهم، وسماع حكاياهم التي لا تنتهي، كانوا هم أصدقائي وسرّي الصغير، الذي لا يشاركني فيه أحد، سقطت قطرات الندى على وجهي، فصحوت لأجد أمي تبكي، وتنظر إلي في حنان.

قلت منزعجا: لماذا تبكين يا أمي؟

قالت وهي تمسح بيديها صنيعة عينيها: لأني أحبك يا صغيري!

لم أفهم حينها العلاقة بين الحب والدموع.

قالت لي وهي تبتسم: سأحكي لك اليوم قصة عن ابني آوى كليلة ودمنة.. أراهما يتقافزان على الحائط قائلين: أخيرا ستحكي عنا!

لم تعرهما أمي اهتماما قائلة: كان في قديم الزمان غابة كثيفة الشجر و... سمعنا باب الشقة يفتح، وخطوات ثقيلة تئنّ لها أرضية الصالة الخشبية، إنها خطوات أبي، توقفت أمي عن الحكي، نظرت إليّ وصمتها يقول: لا تخرج من غرفتك، وتركتني وغادرت الغرفة، ولكن بقي عطرها، وبقايا حكاية لم تكتمل.. صحوت من نومي، لأجد وجه أبي يتأملني بعينين جامدتين، بعينين من زجاج.

قلت: أين أمي؟ لم يلتفت لكلماتي، وكأنه لم يسمعها.